# وعي معلمات المستقبل بمفهوم الاختلاف في قصص الأطفال: دراسة لمظاهر القصور، واستشراف لطرق المستقبل

**علي عاشور الجعفر**

مدرس بقسم المناهج وطرق التدريس، كلية التربية، جامعة الكويت



## الملخص

اعتمدت الدراسة على الأسلوب البحثي المطور لحل المشكلات في النظر إلى موضوع الاختلاف؛ فبعد أن رصد البحث ندرة ما تعانيه الكتابة للطفل، سواء من حيث الكتابة الإبداعية أو الكتابة النقدية، لجأ الباحث إلى أسلوب يحاول من خلاله إثراء مكتبة الطفل في مجال إنتاج قصص تعالج موضوع الاختلاف، وتوعية الطالبات بما لهذا الجانب من أهمية بالغة.

وقد أظهرت الدراسة هذه الأهمية عبر مسارين: الأول المسار النظري، وذلك عند النظر إلى أدب الطفل الذي عالج موضوع الاختلاف، والرؤية العلمية التي تناولته بالنقد. أما المسار الثاني فهو المسار التطبيقي وذلك بإنتاج عشرين قصة في هذا الموضوع.

ولقد كان الباحث حريصاً على القيام بتوعية طالباته بأهمية موضوع الاختلاف، فهن مدرسات المستقبل، والباحث يرجو منهن مستقبلاً تعميق مثل هذه الأفكار بين أنفسهن وزميلاتهن وطالباتهن، حتى يقمن بفعل التوعية على مستوى المجتمع. إن التعددية حقيقة قائمة في المجتمعات الإنسانية، والذي نحتاجه هو البحث عن ذلك المختلف عنا للاحتفاء به؛ لأنه ببساطة يزيدنا معرفة ووعياً بأنفسنا.

## مقدمة

في كتيبه المهم «**العنصرية كما شرحتها لابنتي**» ، يعرض الروائي المغربي الطاهر بن جلون [1] مفهوم العنصرية لابنته ذات السنوات العشر ، بأسلوب حواري مبسط وعميق في آن . وتبدأ رحلة القصة عندما سألته الابنة عن أسباب المظاهرات التي خرجت في فرنسا ؛ احتجاجاً على قانون دوبريه Debre الخاص بدخول الأجانب ؛ تلك المظاهرات التي حمل أصحابها من الشعارات المكتوبة ما دعا الطفلة ذات السنوات العشر إلى أن تسأل أباها عن مدلول تلك الشعارات . هنا ، يبدأ الكاتب عرض الكثير من المفاهيم المهمة ، مثل الاختلاف ، والفصل العنصري ، والتمييز العنصري ، والإثنية ، والتعصب ، والتفوق ، والاستعمار وغيرها من المفاهيم التي هي روافد للعنصرية . ويحاول بن جلون في كتيبه الحواري أن يسبر أغوار العنصري الذي يعتقد أن كل من يختلف عنه يهدد أمنه ، ومن ثم يلجأ إلى الرفض Refuse والرد Reject لكل من يلجأ إلى بابه ؛ لأن العنصري شخص يخاف من الحرية ، مثلما يخاف من الاختلاف .

ويستفيد بن جلون من ملكته الإبداعية السردية في سبر تلك الأعماق النفسية للعنصري ، مستفيداً من دروس التاريخ البعيدة والقريبة ؛ لتوضيح تلك الأعماق لابنته ، ولتأكيد أهمية الاختلاف ، داعياً إياها في نهاية الكتيب لاتباع النصيحة التالية :

«عند بدء المدرسة انظري إلى كل التلاميذ ، ولاحظي أنهم كلهم مختلفون ، وأن هذا التنوع شيء جميل . إنها فرصة للإنسانية . هؤلاء الطلاب يأتون من آفاق مختلفة ، وباستطاعتهم أن يقدموا لك أشياء لا تملكينها ، مثلما تستطيعين أن تقدمي لهم شيئاً لا يعرفونه . إن الخليط غني متبادل»[2] .

## أهمية البحث

يتميز المجتمع الكويتي بتعدديته الثقافية ، والمذهبية ، والقبلية ؛ فأبناؤه ينحدرون من أصول عربية نجدية ، أو أصول مهاجرة من العراق ، والبحرين

وإيران ، ويدين المجتمع الكويتي بالإسلام ، وهو دين يحتضن مذاهب شتى سنية وشيعية ، ينطوي كل مذهب على اجتهادات فقهية متنوعة . وتَفَهَّم الأجداد مثل هذا التنوع الذي يضمهم ، فأسسوا بنيانهم على نمط يتيح الفرصة لهذا الاختلاف ببناء «دكات» و«ديوانيات» تكون ملتقى للحوار ، ومجالاً لاحترام الرأي المخالف[3] . ولم ينحصر هذا المبدأ داخل الوطن العزيز ، بل صاحبهم في رحلاتهم التجارية إلى الهند وأفريقيا ، فجلبوا معهم – بالإضافة إلى خيرات تلك البلاد – كلمات لا تزال حية في لهجتهم المحلية[4] ، وتراثاً موسيقياً ومعمارياً هائلاً لا يزال له تأثيره المتميز .

لكن مما يؤسف له أن الجيل الحالي (جيل ما بعد الغزو العراقي) ، يبدو وكأنه قد فقد أصول الحوار ، ونبذ مبدأ الاختلاف بسبب ما تعرض له من هزة قومية أخلاقية سببها اجتياح النظام العراقي البائد للكويت عام 1990 ، فجعل منه جيلاً يتمسك بأنانية ضيقة ، نسى من خلالها رحابة البحر والصحراء ، اللذين يدعوان المرء إلى حب الاكتشاف والمغامرة والتعلم والانتباه ، ولا سيما اكتشاف الآخر ؛ لأن اكتشاف الآخر هو في حقيقة الأمر اكتشاف للذات .

ثم إن المناهج الدراسية التي اتخذت من التعليم البنكي كما أصّل له (باولو فريري Freire, 1995)[5] أساساً لها قامت بدورها في تعميق هذا التوجه المتسم بضيق الأفق ، فهناك الكتاب الواحد والمعلم الواحد ، والامتحان الواحد ، وكل أولئك مقدمة تفضي إلى تخريج طلاب من نوعية واحدة لا يؤمنون بمبدأ الاختلاف والتنوع . ويضاف إلى ذلك ما يمر به الجيل الحالي من ظروف تغذي في تكوينه العصبية الدينية ، والقبلية والمذهبية على حساب التنوع والرحابة والتسامح .

من هنا ، فإن أهمية البحث تكمن في ضرورة التنبه إلى مثل هذه الموضوعات الشائكة التي تهدد الوحدة الوطنية ، ولا سيما بين أبنائنا وبناتنا من الطلاب والطالبات في مراحل التعليم العام ، وإلى ضرورة أن يكون المعلم هو نقطة البداية ، فهو أحد الأسس المهمة في المنظومة التعليمية . ويرى الباحث أن صيغة القصة هي مدخل سليم لعرض مثل هذه الأفكار الشائكة ، وذلك

لاعتبارات عدة : منها أن القصة من الفنون المحببة للأطفال ، وأنها تحتوي على شخصيات قد تقوم بمثل هذه الأدوار في الحياة لعرضها بأسلوب شائق يلائم مداركهم وميولهم . لكن يبقى السؤال : إلى أي مدى احتفى أدب الأطفال العربي بمثل هذه الموضوعات؟

**أهداف الدراسة**

تهدف الدراسة إلى تقديم منظور جديد لمعالجة مفهوم الاختلاف من خلال أدب الأطفال القصصي على نحو يعيد لهذا الموضوع أهميته التي هو جدير بها ، ويخالف ما تتسم به المعالجة الراهنة من التكرار والنمطية . كما تهدف الدراسة بالإضافة إلى التأسيس النظري إلى تقديم إسهام أدائي وإجرائي في هذا المجال ، يمكن أن يكون نموذجا قابلا للمحاكاة والتوظيف ، وموضوعا للحوار المثمر والتعديل الخلاق .

**أسئلة الدراسة**

1 ـ ما السمات المائزة لمعالجة مفهوم الاختلاف في قصص الأطفال في الواقع الراهن؟ وما مظاهر القصور فيه؟

2 ـ هل من الممكن تقديم منظور جديد يتعامل مع هذه السمات ويعالج مظاهر القصور؟

3 ـ كيف يمكن اختبار كفاءة المنظور المقترح اختباراً إجرائياً بإنتاج نماذج قابلة للمحاكاة والتوظيف ، وقادرة على أن تجعل من الاختلاف موضوعاً للحوار المثمر؟

**أداة الدراسة**

للإجابة على الأسئلة السابقة ، لجأ الباحث في دراسته إلى استخدام أداتين : الأولى نظرية ، وفيها يعرض الباحث للدراسات السابقة التي ناقشت المضمون في قصص الأطفال ، ويتبين موقع موضوع الاختلاف في فكر هؤلاء

الدارسين ، كما يقوم بفحص للإنتاج المؤلف عن موضوع الاختلاف فيما يختص بالطفل ، ولا سيما ما اعتمد فيه على صيغة القصة . أما الأداة الثانية ، فهي تطبيقية ، ومنها ينطلق الباحث مع طالبات من مقرر أدب الأطفال لتأليف قصص عن موضوع الاختلاف يباين ما هو متاح فيها في المكتبة الحالية .

وقد أنجزت الدراسة من خلال ورشة فنية تعتمد الأسلوب البحثي المطور لحل المشكلات[6] ، وهو أسلوب يقوم على فحص المشكلة ودراستها ، والتماس الحلول لها على نحو آني يتجاوز الوقوف عند اقتراح التوصيات النظرية إلى المعالجة التطبيقية والإجرائية للمشكلات ، وتقديم الحلول العملية المباشرة والناشئة عن المواجهة الفعلية لكل مشكلة منها .

**مصطلحات الدراسة**

**الاختلاف** : نعني بالاختلاف في هذه الدراسة وجود أطراف في المجتمع يتميز كل منهم عن الآخر بخصوصية ثقافية أو جسمانية أو عرقية .

**التعددية** : نعني بالتعددية وعي الأطراف المختلفة بالتمايز والمباينة الناتجة عن حقيقة وجود الاختلاف .

**ثقافة الاختلاف** : نعني بها القدرة على تجاوز الوعي بالفروق إلى الوعي بأهمية الحوار ، وتقبل الآخر ، والتفاعل الاجتماعي والثقافي الخلاق بين الأطراف المتعددة .

**عينة الدراسة**

تنقسم عينة الدراسة إلى نوعين : الأولى مقروءة ، وفيها يعتمد الباحث على مكتبة أدب الأطفال بكلية التربية/ جامعة الكويت ، بما تضمه من قصص تناهز في عدتها الألفين ، وقد قام عدد من المختصين بتصنيف موادها تبعا لأنواع القيم منذ إنشائها في عام 1998 إلى حين إنجاز هذه الدراسة (2004) . وقد جرى رصد اثنتين وعشرين قصة تنتمي جميعها إلى موضوع الاختلاف ، وهي التي اعتمد عليها الباحث في دراسته الحالية . أما العينة الثانية فتتشكل من عشرين

طالبة من طالبات مقرر أدب الأطفال للعام الدراسي 2003 - 2004 بجامعة الكويت ، وقد قامت هذه العينة بتأليف عشرين قصة تتخذ من الاختلاف موضوعاً لها ، اشترط فيها اختلافها عما هو مؤلف ومتاح في مكتبة الكلية ؛ لتحقيق التنوع والثراء في هذا الجديد .

**إجراءات الدراسة**

فرضت عينة الدراسة طبيعة الإجراءات المتبعة في هذه الدراسة : فهناك إجراءات لفحص الإنتاج الخاص بموضوع الاختلاف في أدب الطفل العربي ، وموقف النقاد والكتاب من هذا الموضوع ، وكان هذا إجراء أولياً أطلقنا علينا الإجراء النظري . أما القسم الثاني هو تطبيقي .

وفيما يلي تفاصيل القول في شأن كل من الإجراءين :

**أولاً ـ الجانب النظري**

**قصص الأطفال المطبوعة وموضوع الاختلاف**

تتألف عينة القصص التي تمت دراستها من اثنتين وعشرين قصة عالجت موضوع الاختلاف من زوايا متنوعة . والجدول التالي يوضح هذا التناول :

| موضوع القصة | عدد القصص | النسبة المئوية |
|---|---|---|
| السخرية من الآخر واحتقاره والشعور بالفوقية | 15 | %68.1 |
| التشبه بالآخر وافتقاد الخصوصية | 5 | %22.7 |
| عنصرية اللون | 1 | %4.6 |
| القبول بالاختلاف | 1 | %4.6 |
| المجموع | 22 | %100 |

يلاحظ من النسب المئوية أن موضوع السخرية من الآخر واحتقاره والشعور بالفوقية هو من أكثر الجوانب التي عالجها موضوع الاختلاف ، يليها

التشبه بالآخر وافتقاد الهوية ، ثم عنصرية اللون ، ثم القبول بالاختلاف . وفيما يلي تفصيل لكل نوع من هذه الأنواع :

**السخرية من الآخر واحتقاره والشعور بالفوقية**

تنفرد السخرية من الآخر بالنصيب الأكبر في تناول موضوع الاختلاف . ويتنوع التناول لهذا الموضوع إلى أكثر من زاوية . فهناك سخرية الحيوان من الحيوان ، أو ادعاء التفوق من نبات على آخر ، أو سخرية الإنسان من الإنسان ، أو تفاخر لون على غيره من الألوان . ويوضح الجدول التالي أنواع التناول لهذا الجانب :

| موضوع القصة | عدد القصص | النسبة المئوية |
|---|---|---|
| السخرية على المستوى الحيواني | 10 | %66.6 |
| السخرية على المستوى النباتي | 2 | %13.3 |
| السخرية على المستوى الإنساني | 2 | %13.3 |
| السخرية على مستوى الجماد | 1 | %6.6 |
| المجموع | 15 | %99.8 |

تشتهر قصة البطة الدميمة Ugly Duckling للكاتب الدانمركي هانس كريستيان أندرسون بأنها إحدى القصص المهمة التي تطرح مفهوم الاختلاف اللوني ، لا سيما في المجتمع المتجانس اللون ، فالبطة البيضاء تنتظر فقس بيضها ، وتأتي النتيجة بوجود كائن جديد مختلف عن البقية البيضاء ، فيواجه بالرفض ويجد في النهاية من يتبناه . ويجري اقتباس القصة في العالم العربي ، وتبسيطها على قلم أكثر من كاتب . فمن مترجم لها[7] ، إلى مقتبس لأحداثها[8] . وعلى الرغم من سماحة الدين الإسلامي الرافض لكل أشكال التمييز العنصري والتعصب البغيض ، فإن الحاجة لمثل هذه الموضوعات القصصية مطلب مهم ؛ لأن المجتمعات العربية لا تزال تكابد التعصب من جهات متعددة : المذهب ، أو العائلة ، أو الطبقة ، أو القبيلة .

ويتخذ الكاتب عبدو محمد في قصصه «الأرنب الصغير المتكبر»[9] ، و«نزهة الأصدقاء»[10] ، و«الطاووس الصغير» [11] مساراً واحداً لقصصه الثلاث . فهناك حيوانات لا تلقى الترحيب باللعب معها إما لصغر سنها ، أو لبطئها كما في القصة الأولى ، أو تواجه بالرفض لعدم انسجام الحيوانات معها كما في القصة الثانية ، أو لتكبر أحد الأطراف على سائر المجموعة لخصيصة فيه لا يتمتع بها البقية كما في القصة الثالثة . وفي نهاية القصص الثلاث تتم المصالحة والقبول بعد أن يمر الطرف الرافض بأزمة لا يجد منها مخرجاً إلا على يد الطرف المرفوض .

أما في قصة «الفيل صديقي»[12] فيتمثل فيها فعل الرفض ، بطلب الأرنب صداقة الكلب ولكنه يرفض ؛ لأنه لا يتمتع بالقوة ، فيلجأ إلى الديك الرومي طالباً صداقته ولكنه يرفضه لأنه لا يتمتع بكثافة الريش . ويستمر الرفض للأرنب من الدجاجة ؛ لأن الأرنب لا يمكن أن يكون على الصورة المطلوبة من هذه الأطراف . هكذا يواصل الأرنب بحثه عمن يقبله إلى أن يجد الفيل وهو يئن من شوكة داسها ، فيقوم الأرنب باستلالها . وبسبب من المعروف الذي أسداه الأرنب للفيل تنشأ بينهما صداقة ، غير آبهين بما بينهما من اختلاف يتمثل في ضخامة الفيل وضآلة الأرنب وبهذا أفضى إسداء المعروف إلى ولادة الصداقات الجميلة .

وتعالج قصة «النملة العملاقة»[13] وقصة «الجمل ووحيد القرن» [14] مفهوم الاختلاف من زاوية أخرى ، وهي الجهل ، فالعصفور والنملة ، في القصة الأولى ، يسخران من النملة لأنها تعيش عالة على فضلات الإنسان ، وقد حمل ذلك النملة على أن تشرح لهم قيمة العالم الذي تنتمي إليه ؛ ذلك العالم الذي خفي عليهما لجهلهما به . أما في القصة الثانية ، فإن وحيد القرن يقوم بتعيير الجمل مباهياً بتفوقه عليه في القوة . ولا يملك الجمل إلا أن يشرح له أن لكل حيوان خصائص معينة وعناصر قوة متميزة . وتحدى الجمل وحيد القرن أيهما أشد صبراً على الظمأ لفترة طويلة . وهنا يبرز تفوق الجمل على وحيد القرن ، ولم يكتف بتحقيق النصر على وحيد القرن ، بل إنه قام بحمله على ظهره حين أنهكه التعب .

ومن هذا السياق قصة «الأسماك الصغيرة»[15] وهي قصة تناقش فكرة الاختلاف من جهة الحجم . فالسمكة الكبيرة تعير السمكة الصغيرة بضآلة حجمها ، لكن السمكة الكبيرة في نهاية الأمر تقع في شباك الصياد فلا تستطيع الخلاص على حين يكتب النجاة للسمكة الصغيرة .

أما النوع الثاني من السخرية في هذه المجموعة القصصية فيتمثل أبطاله في عالم النبات . في قصة «الشجرة المغرورة»[16] يدور الحوار بين شجرة التوت والصمغ . فالأولى ترى في نفسها أنها الأجمل والأكثف أوراقاً ، والأكثر إنتاجاً ، وأن خشبها كثير المنافع . وتعترف شجرة الصمغ بذلك ، لكنها تشير إلى أنها المصدر الأكثر دفئاً عند الحاجة إليها ؛ لأن خشبها يطول ويدوم طويلاً عند الاحتراق ، وهذا ما فعله صاحب المنزل عندما احتاج إلى خشب في شتائه الطويل .

أما قصة «الآنسة بطاطا تبحث عن صديق»[17] ، فإنها تبحث في نقطة مهمة ، وهو غرور البطاطا وافتخارها على الفاكهة . الآنسة بطاطا تخرجت من المدرسة وتريد أن تقيم حفلة بهذه المناسبة فتجيبها الأم بالموافقة بشرط مشاركة الأصدقاء لها في هذا الاحتفال . هكذا تخرج الآنسة بطاطا لتبحث عن صديق يحضر حفلتها ، فتجد في طريقها الموزة التي تعرض عليها صداقتها ، إلا أن بطاطا ترفض تلك الصداقة ، لأن لون الموزة باهت وشكلها معوج . وهكذا يستمر الرفض من الآنسة بطاطا لسائر صنوف النبات ، البرتقالة لخشونة ملمسها ، وثمرة الأناناس لكثرة أشواكها ، وثمرة التين لكثرة بذورها . ويقبل الليل والآنسة بطاطا من غير صديق وبلا احتفال . وهنا يتساءل المرء : إلى أي مدى تتفوق البطاطا على فاكهة كالبرتقال أو الموز ، سواء من حيث ما تحتويه من الفيتامينات أو من حيث محبة الأطفال لهما؟ ويرى الباحث أن سر ذلك راجع إلى أن البطاطا من نباتات ما تحت الأرض ، أي أنها ذات جذور راسخة ، وأنها تنتمي إلى عالم مختلف عن عالم ما فوق الأرض . لذلك فإن رفضها كل هذه الأنواع المفيدة من الفواكه هو في حقيقة الأمر رفض للجنس المختلف عنها .

أما النوع الثالث من السخرية فكان ميدانه عالم الإنسان وقد تمت مناقشته في قصتين : «أنا لا أسخر من أحد»[18] و«الصغير المهذب» [19] . في كلتا القصتين ، نجد شخصاً يسخر من آخر بسبب عاهته (العرج في القصة الأولى) ، أو بسب هيئته الجسمانية (القصر والمسنة في القصة الثانية) . وفي كلتا القصتين يندم الساخر ويعتذر لمن يكون موضوعاً لسخريته .

أما النوع الأخير فميدانه عالم الجماد ، فقصة «حكاية اللون الأحمر»[20] تعرض لنا غرور اللون الأحمر في سجادة معروضة للبيع ، وتأسر الشاري بجمال ألوانها . وحين يحملها الشاري إلى البيت يلهج الجميع بجمال اللون المراد ، فيزداد اللون الأحمر غروراً حتى ضجت منه بقية الألوان وقررت الخروج من السجادة . حينئذ يظل اللون الأحمر وحيداً عارياً من الجمال فيقرر أصحاب البيت رد السجادة إلى المعرض . هكذا يدرك اللون الأحمر أن سر جماله هو في تناغمه مع الأوان الأخرى في لوحة جمالية بديعة .

إن المتأمل للقصص السالفة الذكر يجد فيها عرضاً لمفهوم الاختلاف بين طرف مصاب بالغرور يرى أنه يتمتع بصفات لا توجد عند الآخر ، وتنشأ لديه نظرة استعلائية يزدري الآخر . ومثل هذا الطرح واضح في القصص : «الأرنب الصغير المتكبر» ، و«نزهة الأصدقاء» ، و«الطاووس الصغير» ، و«الفيل صديقي» ، و«الشجرة المغرورة» ، و«الآنسة بطاطا تبحث عن صديق» ، و«حكاية اللون الأحمر» .

هذا الغرور مرده إلى الجهل الذي يفضي بأصحابه إلى إصدار أحكام لاتنبع من معرفة الآخر ؛ لأن الغرور الذي يحمل صاحبه على أن ينظر إلى الأشياء في استعلاء لا يمنحه فضيلة التواضع ليكشف حقيقة الطرف الآخر . غير أنه بالحوار تنجلي الحقائق ، ويعي الطرف المغرور أو الجاهل حقيقة الطاقات الكامنة في الطرف الثاني . وهذا هو ما يتضح في قصة «النملة العملاقة» وقصة «الجمل ووحيد القرن» .

### التشبه بالآخر وافتقاد الخصوصية

عالجت خمس قصص موضوع الاختلاف من زاوية النظر إلى الآخر وتعظيمه ومحاولة التشبه به حتى لو أدى ذلك لافتقاد الخصوصية والهوية . ويتخذ التشبه بالآخر في هذه القصص ضروباً مختلفة : فهناك البطة التي تريد أن تصبح كائناً بشرياً ، لكنها خسرت بإخفاقها في أن تحقق هذا التحول ؛ وخسرت خصوصية البطة بعد أن قايضت ريشها بالفستان النسائي . هذا الدرس هو الذي تعلمنا إياه قصة «وتعلمت البطة القناعة» [21] . أما قصة «الضفدعة والثور» [22] وقصة «منتهى الغرور» [23] فهما تعالجان قضية التحول من نوع حيواني إلى نوع حيواني آخر ، فالضفدع يصر على أن يكون بحجم الثور ، وهكذا يبدأ بنفخ نفسه شيئاً فشيئاً حتى ينفجر . أما قصة «البطة الرشيقة» [24] فتناقش فكرة التحول من حيوان إلى حيوان آخر من النوع نفسه ولكن بصفات أخرى مخالفة . فالبطة تحلم بأن يكون لها سيقان طويلة كالبجعة فتلجأ إلى السيقان الخشبية لتطويل أرجلها . لكنها بعد فترة شعرت بالجوع والعطش ، لأنها لاتستطيع شرب الماء واصطياد الأسماك في وجود هذه السيقان ، ولافتقادها الرقبة الطويلة . هكذا تفيق البطة من حلمها فتفهم سر الجمال في أن يكون المخلوق كما قدر له الخالق أن يكون . أما قصة «أنا ميمون»[25] فتعرض لأنواع متنوعة من التحول ، فالزرافة تريد أن يكون لها خرطوم كالفيل ، وأن تكون سريعة التسلق كالقرد وغير ذلك من الأشياء . لكنها حين تحاور أمها فتشرح لها الأم خصوصيتها «الزرافية» تعود مرة أخرى إلى سيرتها الأولى .

إن قيمة قصص هذه المجموعة تكمن في أنها تعمل على إبراز قيمة الاختلاف من زاوية احترام الخصوصية وعدم احتقارها ، وعدم التشبه بالآخر لمجرد أنه يمتلك صفات لا وجود لها لدى الطرف الثاني ، ذلك أن كلاً منها ينطوي في داخله على طاقته الخلاقة الفريدة .

### عنصرية اللون

من بين القصص الاثنتين والعشرين ، توجد قصة واحدة تناولت الاختلاف

من زاوية اللون والنظرة العنصرية له . فقصة «القطة السوداء»[26] تحكي عن قطة ترفضها مجموعة القطط بسبب لونها الأسود ، فترجع إلى أمها حزينة . حينئذ تبدأ أمها في تلقينها درساً في المحبة التي ترغم بها الطرف الآخر على حبها . هكذا تبدأ القطة السوداء بالدخول إلى عالم الألوان الرافضة عن طريق الحب الذي فتح له باب القبول عند الطرف الآخر .

**القبول بالاختلاف**

تعد قصة «الحسناء والوحش» [27] لمدام ماري لو برينس دو بومونوت Mme Marie Le Prince de Beaumont من أشهر القصص التي تناولت موضوع الاختلاف ، لا سيما قبول الجميل لمن هو قبيح الظاهر جميل الباطن . وقد كتبت هذه القصة في عام 1756 [28] ولكنها لاقت شهرتها الواسعة لا سيما بين الأطفال عن طريق أفلام والت ديزني . وهي من النماذج التي تقدم لنا الجانب المضيء عند الإنسان ؛ أعني الجانب الباطني الذي يعمر بالمحبة فيتحول القبح معه إلى جمال .

**موقف كتاب أدب الأطفال ونقاده من موضوع الاختلاف :**

معظم الكتابات التي تناولت قصص الأطفال تناولته من جهة تعريف النوع القصصي ، لا من جهة القضايا التي تطرحها هذه الأنواع . فهؤلاء الكتاب يكتفون بالإشارة إلى تعريف النوع القصصي كالحكاية الخرافية ، أو قصص الحيوان وغيرها[29] . ومع مثل هذا التعميم يفقد الكثير من أنواع القصص ما ينطوي عليه من مضامين إنسانية عميقة .

ويؤكد الهيتي [30] أهمية التزام أدب الأطفال في مضامينه بالأنماط السلوكية التي تقوم على الحب والعدل والمساواة والخير للإنسانية ؛ تلك القيم التي تغرس في الإنسان الإحساس بأن الآخر هو جزء منه ، دون أن يكون ذلك على حساب خصوصيته ، وتفرده . لكن مما يؤسف له أن المضامين المقدمة للطفل كما لاحظ شحاتة[31] تعتني بثقافة الذاكرة على حساب الإبداع ؛ الذاكرة التي تركز على الجانب السالب من الماضي بما فيه من استبداد الأب وتحقير المرأة ، والانفراد

بالأوامر والنواهي ، وهو ما يفضي في نهاية الأمر إلى نوع من القدسية والخضوع لبعض الأشخاص والأفكار . مثل هذه الذاكرة لا تحقق المبدأ الحواري مع الطفل القارئ ، ولا تشجعه على سلوك سبيل التعليل والتفسير وإعمال الفكر والبحث عن العلاقات بين القضايا واستخدام الخيال ، بل إن المضامين الحالية المقدمة للطفل العربي في معظمها يركز على إهمال مثل هذه القيم الإبداعية ، واللياذ بمضامين تكرس مسايرة سلطة الكبار .

إن مضموناً كرفض التمييز والتعصب – على سبيل المثال – جاء في المرتبة العشرين من أصل اثنين وعشرين عنصراً في الدراسة التي قام بها الشماس[32] عن قصة الطفل في سورية ؛ وهي دراسة توجهت باستبانتها إلى المؤلفين والمعلمين والأطفال . ومما يؤسف له أن هذه الاستبانة عندما وزعت على الكتاب المختصين بفن الكتابة للطفل ، وممن يحمل معظمهم الإجازة الجامعية وما فوقها جاءت نتائج ردودهم على الاستبانة في المضمون الخاص برفض التمييز والتعصب في المرتبة الأخيرة . ولا تختلف هذه النتيجة عند إجابات المعلمين والأطفال . وقد يلتمس المرء العذر للأطفال – كما فعل صاحب الدراسة الأصلية – عندما وضعوا هذا المضمون بالمرتبة الأخيرة ؛ لأن تعذر فهمهم للمقصود من كلمة التمييز والتعصب وارد ، لكن ذلك لا يعفي الكتاب والمعلمين .

وتخلص رمضان[33] في تقويمها لقصص الأطفال في الكويت إلى أن الهدف الخاص بكراهية التعصب والخداع اعتبر عند العينة المختارة من أقل الأهداف حظاً من الأهمية . ولم تكتف العينة بمثل هذا الرأي ، بل إن الباحثة أسهمت برأي لا يقل عن ذلك سلبية عندما عدت قصة «عقلة الأصبع»[34] وقصة «البطة السوداء» التي ناقشناها سلفاً من القصص التي تنطوي على مضامين خاطئة ، وتزرع بذوراً عنصرية في نفس القارئ الطفل[35] . وفي مثل هذا الرأي الناقد إجحاف بالقصتين . فقصة عقلة الأصبع تقتبس مضمونها من قصتين شعبيتين : الأولى معروفة ومشهورة في الكويت والخليج باسم قصة «انصيف نصيفان»[36] ، والثانية معروفة عالمياً باسم هانسل وجريتل Hansel & Gratel وهي إحدى الحكايات الخرافية التي ضمنها الأخوان جريم مجموعتهما

الفولكلورية[37] . فعقلة الأصبع طفل يولد غير مكتمل النمو يعيش مع والديه وإخوته الستة . ونظراً لفقر الأب وما يعانيه من سوء الحال فإنه يؤثر أن يترك أبناءه الستة لمصيرهم في الغابة على أن يراهم يموتون أمام عينيه . لكن عقلة الأصبع يستطيع بما يتمتع به من ذكاء وفطنة أن ينقذ نفسه وإخوته ومدينته . صحيح أن القصة تنطوي على بعض مظاهر العنف ، لا سيما فيما أضافه الكاتب من قصة هانسل وجريتل وملاقاتهما للغول آكل لحوم الأطفال ، غير أنه حتى هذا النوع من العنف له ما يسوّغه في الجانب الفولكلوري ، بوصفه نوعاً من التنفيس (تحقيق مبدأ العدالة) في أقصى درجاته ، وهو الموت للجانب الشرير .

**ملاحظات عامة على الجانب النظري من الدراسة**

من الدراسات السابقة يلاحظ القارئ أن معظم القصص التي تعالج موضوع الاختلاف انحصرت في قصص الحيوان ، وهو يعتبر من الفنون المحببة لدى الأطفال . لكن مما يؤخذ على هذه القصص أنها تصور الشخص المختلف على أنه طالب للاندماج مع الطرف الآخر ، وأن عملية القبول لا تتم إلا بعد أن يواجه الطرف الرافض مشكلة ما ، فيقوم الطرف المرفوض بحلها فيتحقق القبول . إن مثل هذا الإجراء فيه خطورة ؛ لأنه يقوم على تحقيق مبدأ المصلحة بمفهومها السلبي . وكان من الأولى أن تقوم قصص الاختلاف بعرض المختلف بوصفه كائناً متفردا ، وأن يكون سر القبول لهذا المختلف هو كونه مختلفاً . يضاف إلى هذا قلة الكتب النقدية الخاصة بأدب الأطفال التي تعنى بمثل هذه الأمور ، لا سيما في الجانب القصصي . إن الافتقار إلى الوعي بأهمية مثل هذا الموضوع لم يكن مقصوراً على الكتاب وحدهم ، بل امتد ليشمل المعلمين أيضاً ، وهنا تكمن الخطورة . لذلك يأتي القسم الثاني من الدراسة ليكون مكملاً للأول ، في محاولة لتلافي ما أسلفنا الإشارة إليه من أخطاء .

**ثانياً – الجانب التطبيقي من الدراسة**

قام الباحث بعمل مشروع مع عشرين طالبة من طالبات مقرر أدب الأطفال في سبتمبر 2003 . ويهدف المشروع إلى معالجة موضوع الاختلاف في

تجلياته وصوره التي نعيشها في حياتنا ، والخروج بقصة عن موضوع الاختلاف تكون مناسبة للأطفال . وقد سار الباحث بعيناته في الخطوات التالية من أجل تحقيق الهدف :

1 ـ قام الباحث بتدريس الخصائص العامة المميزة للكتابة الموجهة للأطفال ، ومميزات كل مرحلة عمرية من حيث الموضوعات المناسبة والمعجم والرسوم .

2 ـ كلّف الباحث عَينته القيام بالقراءة والمراجعة لعشرين قصة موجهة للطفل تختاره العينة بطريقة عشوائية ، على أن تشمل هذه القصص موضوعات مختلفة ، وذلك بهدف الاطلاع على ما يكتب للأطفال ؛ من حيث الأساليب المعتمدة وطبيعة الموضوعات التي يجري تناولها .

3 ـ ناقش الباحث مع العينة مناقشة جماعية ما توصلن إليه من نتائج في أثناء فعل القراءة ، وكان أهمها غياب الموضوعات الخاصة بالاختلاف في القصص الأربعمائة التي قامت العينة بقراءتها ، مع علم الباحث سلفاً بوجود بعضها في المكتبة .

4 ـ من خلال النتيجة السابقة ، جرى الحوار مع العينة حول ضرورة الكتابة عن هذه الموضوعات المهمة . لكن قبل الشروع في ذلك كان لا بد من الحديث عن مفهوم الاختلاف بمعناه الواسع الذي يشمل الإنسان والطبيعة من حوله .

5 ـ جرى حوار فردي من كل فرد من أفراد هذه العينة للاستماع إلى أفكار كل منهن عن الموضوع الذي تود الكتابة عنه في موضوع الاختلاف . وانتهى الحوار إلى نتيجة ملخصها أن الاختلاف موجود في حياتنا في كل شيء ، ابتداء من البشر بأشكالهم وألوانهم وأحجامهم إلى الاختلاف بأنواع الأطعمة ، والحيوانات وكائنات الطبيعة .

6 ـ أكد الباحث للعينة أهمية أن يتوافر للموضوع المراد الكتابة عنه صفة التشابه ، وألا يظهر الاختلاف إلا حين يكون المنظور خاصاً . فالخبز بوصفه موضوعاً عاماً – على سبيل المثال – ينتج من العجين ، ويرجع أصل العجين إلى الحبوب التي يجري بذرها ، لكن هذا الخبز – على المستوى الخاص – له ألوان عدة ، وأشكال متنوعة ، ووظائف لا حصر لها . مثل هذه النظرة الرمزية لمعاني الاختلاف فيها توظيف للموضوع الرمزي ،

وإسقاط له على الواقع الاجتماعي ، لتصبح الموضوعات الخاصة عن الاختلاف في نهاية الأمر هي موضوعات تتسع لتشمل العنصرية والطائفية والقبلية والعائلية وغير ذلك من الموضوعات العامة . إن العنصري والطائفي والقبلي وغيرهم هم من ذوي الاحتياجات الخاصة الذين يحتاجون إلى عملية تنوير من نوع خاص ، لطرد ما يهدد الوحدة الإنسانية واللحمة الاجتماعية بين أفراد المجتمع .

7 ـ بإعمال الرؤية السابقة ، يصبح مفهوم الاختلاف رحباً وشاملاً كل أفراد المجتمع بكل أطيافه ، وتتوارى النظرة إلى القبلية أو المذهب ، أو إلى من هم من ذوي الاحتياجات الخاصة على أنهم الفئة الأقل والأضعف في المجتمع ، ليكونوا جزءاً من النسيج العام من المجتمع .

**نتائج الدراسة التطبيقية**

تمخض الحوار عن اشتراك الطالبات في كتابة تسعة موضوعات تحت عنوان الاختلاف .

ويوضح الجدول التالي أنواع الموضوعات ، وعدد الطالبات اللاتي كتبن في كل موضوع والنسبة المئوية لذلك :

| الموضوع | عدد الطالبات | النسبة المئوية |
|---|---|---|
| الاختلاف البشري | 4 | %20 |
| الاختلاف الحيواني | 2 | %10 |
| الاختلاف النباتي | 1 | %5 |
| الاختلاف في الطعام | 5 | %25 |
| الاختلاف في مظاهر الطبيعة السماوية | 3 | %15 |
| الاختلاف في الأشكال الهندسية | 1 | %5 |
| الاختلاف في الألوان | 2 | %10 |
| الاختلاف في أنسجة الملابس | 1 | %5 |
| الاختلاف في عناصر الوقت | 1 | %5 |
| المجموع | 20 | %100 |

وفيما يلي تفصيل ذلك :

**الاختلاف البشري**

نظرت أربع طالبات إلى موضوع الاختلاف ، متخذات من الإنسان أو إحدى حواسه منطلقاً لإبراز الموضوع . فقصة الطالبة (مريم) «القرية الصغيرة» تناقش النظرة السالبة في المجتمع للمهن المتواضعة كجمع القمامة . فأهل القرية دائمو السخرية من جامع القمامة «الزبال» ، لا لشيء إلا لأنه يمتهن هذه المهنة ، وقد ولدّ ذلك لديه جرحاً نفسياً غادر على إثره القرية التي احتقره أهلها ، ونتج من ذلك الرحيل تكدس القمامة التي جلبت الأمراض والروائح الكريهة في القرية . هنا عرف أهل القرية الخطأ الفادح الذي ارتكبوه في حق كنّاس القرية ، الذي كان في حقيقة الأمر يميط الأذى والمرض حماية لأهل قريته ، وقد أفضى بأهل القرية إلى مصالحته والاعتذار له . وهكذا بدأ أهل القرية العمل مع الكناس في تجميع ما يلقونه حرصاً على نظافة القرية .

هذه النظرة السلبية على مستوى المهن ، تقابلها نظرة سلبية أخرى للأشخاص الذين يقومون بتصرفات غريبة لا نعرف سرها لعدم وعينا بحقيقة ما يعانونه من مرض . ومن أمثلة ذلك ما يقوم به بعض الأطفال المصابين بالتوحد . فأطفال التوحد لهم خصوصيتهم ، وهم يقومون بممارسات قد تجعل الآخر يعتقد أنهم مختلون عقلياً ، ومن ثم يشرع في السخرية منهم . وقد عالجت الطالبة (منى) في قصتها «لقد أدركت خطئي» مثل هذه الإشكالية . واستعداداً للكتابة في هذا الموضوع ، قرأت الطالبة بعض المراجع عن طبيعة هذا المرض ، وبعض القصص المترجمة التي أصدرها مركز التوحد بالكويت ، ومن ثم تحقق لها عند الكتابة إحاطة علمية بطبيعة المرض ، وبطريقة الكتابة الأدبية في مثل هذا الموضوع . هكذا لفتت الطالبة (منى) قارئها إلى طفل التوحد وصفاته وكيفية التأقلم معه .

وتنظر الطالبة (مويضي) إلى موضوع الاختلاف البشري من زاوية أخرى ؛ ألا وهي مفهوم القبح والجمال . ففي قصتها «أنا جميلة» ، تحكي قصة الطالبة

المؤدبة سارة ، تلك المحبوبة من الجميع ، لكنها حينما ترى نفسها بالمرآة كانت تتساءل عن سر عدم جمالها . هكذا تلجأ الطفلة بسؤالها إلى جدها الذي يبدأ بعرض أمثلة عن أشياء تبدو في عين ناظرها قبيحة الشكل لكن الخدمات التي تقوم بها جليلة ومهمة ، كدودة القز القبيحة التي تهبنا الحرير ، أو النحل الذي يعطينا العسل ، أو البومة التي تساعد المزارع في طرد الفئران عن محصوله الزراعي . هكذا يبين الجد لحفيدته مفهوم الجمال بالمعنى العميق ، ذلك الجمال الذي يرتبط بما نقدمه للآخرين فيبقى في الذاكرة ، فيصبح مفهوم العطاء جزءاً من مكونات العقل الإنساني .

أما أعضاء الإنسان كاليد مثلاً ، كما في قصة الطالبة (فضة) «دنكل وأصابعه الخمسة» ، فتصبح نقطة الانطلاق للتعبير عن موضوع الاختلاف . فأصابع اليد له الشكل نفسه تقريباً إلا الإبهام الذي يختلف عن أقرانه بقصره وعرضه ، وبُعد المسافة بينه وبينهم ، وهو ما جعل زملاءه يتفقون على نبذه . نسيت هذه الأصابع أن «حركتهم» تكون شبه مشلولة من غير الإبهام «دنكل» . فإمساك القلم ، وشرب الماء ، والإمساك بالأشياء والمصافحة كلها أمور يكون للإبهام دوره المهم فيها . هكذا عرفت الأصابع الأربعة دور الإبهام بعد أن وقعت في مشكلة لتعود الصداقة بينهم إلى ما كانت عليه من وثاقة .

إن قصص الطالبات في هذا الموضوع حاولت أن تبرز جوانب متعددة : فهناك الجانب الإنساني في النظرة إلى المهن المتواضعة ، وهناك جانب التوعية في المعرفة ببعض الأمراض التي يعاني منها بعض ذوي الاحتياجات الخاصة كالتوحد ، وهناك الجانب التأملي لمفهوم الجمال الذي ينطوي على مفهوم العطاء ، وأخيراً التأمل في خلق الله وفي أنفسنا البشرية التي فيها من الاختلاف ، لكنه اختلاف مطلوب عندما تضيق بنا السبل ونواجه المأزق .

**الاختلاف الحيواني**

تناولت طالبتان موضوع الاختلاف في مجال الحيوان . وهما في تناولهما لهذا الموضوع حرصتا على أن تسبغا شيئاً من المعاصرة عليه . فالمجتمع العربي

سريع التغيير ، والكثير من الأشياء التي كان يعتمد عليها أصبحت في طي النسيان . من هذه الأمور النظرة المعاصرة للجمل ، ذلك الحيوان النبيل الذي كان يقوم بدور مهم في حياة الإنسان العربي . تبدأ قصة الطالبة (خديجة) «الجمل و . . .» في مناقشة الموضوع وذلك في صورة حوار يجري بين الجمل والسيارة . فالسيارة تعيّر الجمل الذي ما عاد له دوره المركزي بعد انتشار السيارات . هنا ، يبدأ الجمل في الدفاع عن نفسه ، شارحاً للسيارة فوائده التي ما زالت قائمة . فالجمل لا يزال الأسرع في الأماكن التي يستعصي على السيارات دخولها كالصحراء ذات الكثبان الممتدة . وهو في مثل هذه الأماكن الصعبة يعتمد على الاكتفاء الذاتي في شرابه وغذائه لفترة طويلة . يضاف إلى ذلك فوائده الغذائية للإنسان ، أو منافعه الأخرى إذ يستخدم من وبره في صنع الملابس أو الخيام . والأهم من كل ما سبق هو أن الجمل يحتفظ بشكله ، فهو لا يتغير ، وفي ذلك يتجلى مفهوم الخصوصية والهوية وأهمية المحافظة عليهما . وهنا ، تبدي السيارة تفهماً لما يبديه الجمل ، وتقدم إليه الاعتذار .

وأهمية الحفاظ على الهوية المستفادة من القصة السابقة ، تقابلها نظرة أخرى إلى حيوان آخر هو الفيل الذي يرفض خرطومه ، ويريد التخلص منه لأنه يجعله مختلفاً عن بقية الحيوانات . هذا ما تناقشه قصة الطالبة (ماجدة) «فلفول الصغير» . والفيل من أجل التخلص من خرطومه يلجأ إلى الأسد الذي يساعده على ذلك . فرح الفيل الصغير بذلك ، لكن بقية الحيوانات واجهته بازدرائها ورفضها لما فعل . فقد عرف المجتمع الحيواني الفيل على صورته المعهودة ، وهو في صورته الجديدة كائن مشوه ودخيل عليهم . وبعد أن لاحظ رفض المجتمع الحيواني له ، اكتشف الأهمية الكبرى التي كان يقدمها له خرطومه في ممارسة الشراب أو النظافة . والقصة تقدم بطريقة رمزية نقداً للواقع المعاصر من خلال ما يقوم به بعض الذكور والإناث من عمليات تجميلية ، لاعتقادهم أنهم من وراء ذلك يكونون أكثر جمالاً وشباباً . ونسي هؤلاء أنهم يقومون بتغيير روح الطبيعية

التي أسبغها الله عليهم ، وأن المعادلة هي في الانسجام مع الآخر من خلال العطاء وليس التشويه .

### الاختلاف النباتي

كتبت الطالبة (شيخة) قصة «الصبار الحزين» ، ذلك النبات الصحراوي الذي يشكو عزلته ، وخوف النباتات أو البشر من الاقتراب منه لكثرة أشواكه . لكن نباتاً صحراوياً آخر هو النويّر يشرح للصبار فوائده للإنسانية . فالصبار يتمتع بقدرة على تخزين الماء مما يجعل العطاش يلجأون إليه ، ومن زيوته تصنع الأدوية ليتداوى بها المرضى في كل المجتمعات . هنا يخرج الصبار من حالة الحزن التي كان فيها ليعلم أنه – على الرغم من عزلته في الصحراء وكثافة أشواكه – ذو فائدة ، وفي عزلته وأشواكه تكمن تلك الفوائد .

### الاختلاف في الطعام

كتبت خمس طالبات في هذا الموضوع ، وعالجت كلهن موضوع الاختلاف بين الأطعمة من حيث القيمة الغذائية والفائدة الصحية التي تقدمها للإنسان . ففي قصة الطالبة (ماجدة) «برتقالة وتفاحة» ، يبدأ الحوار بين البرتقالة والتفاحة لتتحدث كل منهما عن فوائدها الغذائية ، تلك الفوائد التي تجعل الإنسان يفضل نوعاً على نوع . في نهاية الحوار ، تأتي ربة البيت لتصنع عصيراً تمزج فيه النوعين . وتناقش الطالبة (عذاري) في قصتها «الخبز الأبيض والخبز الأسمر» ، والطالبة (بشاير) في قصتها «أرغفة الخبز» موضوع الاختلاف باستخدامها عنصر اللون . فالخبز الأبيض يغمز الخبز الأسمر بعدم إقبال الناس على أكله على نحو ما يقبلون عليه هو ، ويعلل له سبب عدم الإقبال بأنه أغبر اللون ، خشن الملمس . لكن الخبز الأسمر يلجأ إلى الأسلوب العلمي في الرد على الخبز الأبيض ، فيعلل سبب السمرة والخشونة باشتماله على النخالة ، وأن النخالة تقوم بدور مهم في مقاومة السمنة ، وأن المعدة تحبها لأنها تسهل لها عملية الهضم . وبعد أن يقتنع الخبز الأبيض بفوائد الخبز الأسمر فكرا معاً في أن

يتعاونا لتكون النتيجة خبزاً جامعاً بين النوعين فائدة وشكلاً ، وهي خبز الحنطة .

هناك ملاحظة تظهر لنا في القصص الثلاث السابقة ، وهي محاولة الطالبات الخروج بحل وسط بين الأنواع الغذائية المطروحة ، وذلك من خلال عملية المزج بينهما ؛ على نحو يشير إلى قيمة التعاون ، والانصهار في الواحد من غير نظر إلى الشكل الخارجي ، أو اللون ، أو الجنس ، حيث يكون الاعتبار والقيمة للعطاء من أجل الكل .

أما الطالبة (أميرة) في قصتها «الشاي والحليب» ، فهي تنظر إلى موضوع الاختلاف من زاوية لها علاقة بالثقافة والهوية في المجتمع . فالحليب يكرر أمام الشاي فوائده الغذائية ، وكيف أن الأطباء دائماً ينصحون بشربه ، والشاي يعلم حقيقة الكلام الذي يقوله الحليب . لكن النقطة التي ينطلق منها الشاي والتي تميزه وتجعل منه شيئاً مختلفاً هو في كونه رمزاً للضيافة ، فلا ضيافة من غير شاي . والشاي في ذلك يؤكد خصوصيته في الهوية الوطنية للمجتمع مع الإبقاء على حق الحليب بوصفه عنصراً غذائياً مهماً . لكن الحوار يختلف إذا ما جرى بين الحليب وأحد المشروبات الغازية . لأننا هنا أمام طارئ خارجي أحله الأطفال محل الشراب الصحي المفيد وهو الحليب . فقصة «أنا الأفضل» للطالبة (مشاعل) تصور غرور الكولا ، ذلك الشراب الذي فتن به الأطفال ليتخذوا منه شراباً عصرياً جديداً ، والحليب لا يصدق ما تراه عيناه حتى يتم تحكيم أحد الأطفال في الأمر ، فلقد كان هذا الطفل يفضل الكولا على الحليب . وفي يوم ما ، سقط وانكسرت إحدى رجليه ، وتطلب ذلك أن توضع في الجبس . ويوضح الطبيب للطفل أنه يعاني من هشاشة العظام ، وأن السبب في ذلك نقص الكالسيوم في جسمه نتيجة إفراطه في تناول المشروبات الغازية ، حينها عرف الطفل أهمية الحليب في حياته وفائدته الغذائية للجسم البشري .

### الاختلاف في مظاهر الطبيعة السماوية

ناقشت ثلاث طالبات موضوع الاختلاف في مظاهر الطبيعة السماوية ، ، لا سيما الشمس والقمر ، سواء من من حيث الضوء وقوته ، أو زمن ظهور كل

منهما ، أو قيمة كل منهما للمجتمع الإنساني . فقصة «حارس الأطفال» للطالبة (أماني) تبين قيمة القمر وضوئه للأطفال . فالشمس تنبز القمر بقولها : إن الأطفال لا يعرفونه ولا يحبونه ؛ لأنه حين ظهوره يكون الأطفال قد أخلدوا إلى النوم . مثل هذا القول الصادر من الشمس جعل القمر يحزم أمره على الاختفاء ، فاشتد لذلك الظلام ، وتولد الخوف لدى الأطفال فأخذوا في البكاء . عندها ، عرف القمر أن دوره الحقيقي هو حراسة الأطفال من الظلام فعزم على الظهور من جديد .

أما قصة «الشمس والقمر» للطالبة (نورة) ، فهي على العكس من قصة زميلتها ؛ إذ تجعل القمر هو الذي يتباهى بنور ضيائه وجماله ، ويخاطب الشمس قائلاً إن البشر لا يحبون النظر إلى وجهها لأن ضوءها يؤذي العيون . حزنت الشمس لمثل هذا القول فعزمت على الاختفاء ، وحينئذ عم الظلام ، وذبلت الأزهار ، وبقيت الثياب المبتلة على حالها ، حتى أصاب الملل الناس من ضعف ضوء القمر . عرف القمر دور الشمس في حياة الطبيعة الأرضية ، وندم على ما قال واعتذر للشمس . بقيت هناك نقطة مهمة لم تلتفت الطالبة إليها في القصة ، وهي أن القمر إنما يستمد نوره من الشمس ، مما يعني أن غياب الشمس هو غياب للقمر أيضاً . لكن يبدو أن الطالبة أرادت أن تبرز مفهوم الاختلاف متناسية الحقيقة العلمية على حساب الفكرة .

أما قصة «الحلم العجيب» للطالبة (مريم) فتحكي غرور الشمس والقمر ، فكلٌّ منهما يبرز فوائده بشيء من الغرور ، وما درى كلاهما أن هناك دائماً شيئاً أكبر منهما في هذا الوجود ، جاءت الغيوم لتغطي الشمس في النهار ، وتحجب القمر في الليل ليعرف كل منهما أن الغرور لا فائدة منه ، وأن هناك دائماً ما هو أكبر حين ينتهي التأمل إلى الخالق المبدع لكل الكائنات : الله سبحانه عز وجل .

**الاختلاف في الأشكال الهندسية**

كتبت الطالبة (عنود) عن «شجار الأشكال الهندسية» ، ومن له الحق في أن يكون ملكًا عليها . بدأت الدائرة بالحديث عن نفسها ، فهي موجودة في كل

مكان ؛ فهي ساعة للحائط ، وإطار للنظارات ، وكرة يلهو بها الأطفال ، وطبلة يوقع الطفل عليها نغمته المفضلة . لكن المربع والمستطيل لم يقتنعا بما سمعا ، فالمربع يرى نفسه شاشة عرض يعرض المبرامج المفيدة ، أو حاسباً آليا يصل الإنسان بالمعلومات المفيدة ، فهو لغة العصر الحديث . أما المستطيل ، فهو ضد الثبات ومع الحركة ، فنراه مرة كتاباً يُحمل ، أو هاتفاً نقالاً ، أو آلة حاسبة . وبينما كان المربع والمستطيل والدائرة مستمرين في النقاش ، جاء الطفل من المدرسة ليلعب بألعاب الفك والتركيب ، فصنع من الأشكال الهندسية المتنوعة سيارته التي يطمح إلى أن يقودها في المستقبل .

## الاختلاف في الألوان

كتبت الطالبة (كوثر) قصتها «النجمات الثلاث» لتبرز مفهوم الاختلاف بين الألوان ، ولتعطي درساً مهماً في الاختلاف الذي يفضي إلى المزيد من التعدد عبر مزج الألوان بعضها ببعض . «حمراء» و«صفراء» و«زرقاء» نجمات ثلاث ؛ وهن شقيقات لأب وأم ، لكنهن يختلفن في اللون . هذا الاختلاف أدى إلى مزيد من الجمال حينما اكتشفت الأخوات الطاقة الإبداعية الكامنة في كل لون ، لا سيما عندما يمتزج كل لون بالآخر . وهكذا يتشكل لنا من فعل المزج قوس قزح . أما قصة «اللون الأسود صديق الألوان» للطالبة (عائشة) فهي تبدأ حيث تنتهي قصة الطالبة (كوثر) . فالألوان لا تريد أن تشرك اللون الأسود معها في لعبها وفي رسم اللوحة لأنه دائماً يمحوها ، ومن ثم يلغي جمالياتها . لكن اللون الأسود لا يتفهم تلك الأسباب فيذهب شاكياً إلى قوس قزح صنيع بقية الألوان به ، فيقترح قوس قزح على الألوان أن يجعلوا اللون الأسود المختلف والشقي حافظاً للألوان التي كان يمحوها ، وبهذا أصبح إطاراً حافظاً ومجملاً للوحة التي رسمتها بقية الألوان .

## الاختلاف في أنسجة الملابس

في قصتها «حوار الأنسجة» ، كتبت الطالبة (خلود) عن موضوع الاختلاف ، مستلهمة أنسجة الملابس وما بينها من الاختلاف من حيث الملمس :

نعومة أو خشونة ، ثم من حيث مناسبة هذه الأنسجة لفصول السنة . فالحوار الذي يجري بين الحرير والصوف والقطن والكتان يبرز الاختلاف بين هذه الأنسجة ، لكنهم يخلُصون في نهاية الأمر إلى الوحدة المتمثلة في أن لابسي هذه المنسوجات هم من بني البشر . فالإنسان هو الذي يشكل هذه الوحدة في ذلك التنوع النسيجي ، وكأن القصة في عمقها تردنا إلى مفهوم الوحدة في التنوع أو التنوع في الوحدة .

## الاختلاف في عناصر الوقت

كتبت الطالبة (مشاعل) قصتها «عقارب الساعة» لتطرح مفهوم الاختلاف من زاوية أخرى . فهناك حوار يجري بين عقرب الدقيقة وعقرب الساعة . وترجع السخرية من عقرب الساعة إلى أنه بطيء الحركة . لكن أمراً حدث ، جعل من عقرب الدقائق يتعطل ، ونتج عن ذلك تأخر وصوله إلى عقرب الساعة . وحين يحس عقرب الساعة بالقلق من هذا التأخر ، يلجأ إلى عقرب الثانية ليأتي له بالخبر . وهكذا يقوم عقرب الثواني بالمهمة ، ويعرف عقرب الدقائق خطأه ، ويتم إصلاح العطل لتستمر بعد ذلك دورة الحياة بتعاون العقارب الثلاثة : الثانية والدقيقة والساعة . في هذه القصة ، يبدو المنحى الرمزي واضحاً في تعرضه لموضوع الاختلاف ، فهو هنا قد يشير إلى الاختلاف بين القصير والطويل ، وبين السريع والبطيء ، وبين السمين والنحيف ، وهي إشارات نجد لها أصلاً في الواقع المعيش . فبالعمل معاً ، تسير عجلة الحياة ودورتها للارتقاء بالمجتمع .

## ملاحظات على قصص العينة المشاركة

لعل أهم سمة يخرج بها القارئ لقصص الطالبات المشاركات في المشروع هو التناول الرمزي لموضوع الاختلاف . فالرمز لا يكشف عن مرموزه كما هو الحال في اللغة العادية ، بل إنه يحتاج من قارئه إلى أن يمارس فعل التأمل والكشف اللذين يقودان إلى المعرفة ، والمعرفة تقود إلى معرفة الذات والآخر . يضاف إلى الجانب الرمزي بعد آخر هو التنوع في تناول موضوع الاختلاف .

فالطالبات مارسن إبداعهن في تناول جوانب من الحياة متنوعة للنظر في هذا الموضوع مع محاولة الباحث في أثناء الحوار معهن إبقاء النسب متقاربة إن أمكن ، فلا يطغى جانب على جانب كما لاحظنا في القسم النظري من هذه الدراسة . إن الطالبات لم يكتفين بالنظر إلى الموضوع الواحد . فموضوع الاختلاف في جانبه الإنساني – على سبيل المثال – تمت معالجته في أكثر من زاوية : مثل اختلاف المهن ، والنظرة إلى ذوي الاحتياجات الخاصة ، والنظرة إلى الجمال الداخلي ، والاختلاف في الحاسة البشرية (اليد) . هذا الاختلاف لازمه رجوع الطالبات إلى مصادر علمية لمناقشة هذا الأمر ، كما فعلت الطالبة التي كتبت قصة «لقد أدركت خطئي» .

والملاحظة الأخرى تكمن في لجوء بعض الطالبات إلى الحل التوفيقي في عرضهن ؛ ذلك الحل الذي يحاول أن يحل الإشكال بين الطرفين من خلال مزجهما معاً للخروج بمزاج مشترك . هذا الاشتراك يعلمنا أنه على الرغم من الاختلاف الكامن في النوع الواحد فهو يتحول إلى أبعاد أخرى عندما تتضافر الجهود وتتعاون . فاختلاف لون عن لون لا يعني أنهما متنافران بقدر ما يعني أنهما بتعاونهما معاً يضيفان لوناً آخر على الحياة . هذا اللون الإضافي الذي هو نتاج للمشاركة لا يلغي خصوصية أيّ منهما بقدر ما يثري كل منهما .

هذا التعاون والإثراء القصصي لا يتحقق إلا بالحوار ؛ الحوار الذي جرى بين الباحث مع الطالبات ؛ والحوار الداخلي الذي قامت به الطالبات قبل كتابة قصصهن ؛ والحوار الذي تم في أثناء قراءتهن لبعض المراجع والقصص لتحقيق الفائدة في الكتابة ؛ وأخيراً الحوار الذي كتبت به الكثير من الطالبات قصصهن ؛ وهو حوار يجعل من الأطراف المتحاورة تتعرّف ذواتها ، ومن ثم يتحقق القبول للطرف الآخر .

## النتائج والتوصيات

1 ـ قام الباحث بإجراء مسح لأدبيات قصص الأطفال في مكتبة كلية التربية بجامعة الكويت ، وقد تبين من المسح أن نصيب الأعمال الخاصة بثقافة

الاختلاف قليلة بالنسبة لما ينبغي أن يحظى به هذا الموضوع في المجتمع المدني المعاصر من أهمية ، ومن ثم يوصي الباحث بضرورة احتفاء دور النشر والمؤسسات المهتمة بثقافة الطفل بهذا الموضوع والتشجيع على إثرائه بكل ما هو جديد وممتع .

2 ـ أوضحت النتائج إمكان تنمية وعي الطالبات بمفهوم الاختلاف والتعدد من خلال قراءتهن للنصوص المتاحة حول هذا الموضوع في مكتبة الكلية ، وزيادة قدرتهن على إنتاج قصص مختلفة تثري المكتبة الأدبية للطفل ، وبذلك لم تعد الطالبة مجرد مستقبل للمعلومة بل صانعة لها .

3 ـ أبرزت الدراسة ضرورة الاعتماد في تدريس المقررات الجامعية على تنمية الملكات والمهارات التطبيقية بحيث يكون للطلاب إسهاماتهم الإبداعية المنطلقة من المعرفة بالواقع والهادفة إلى إنتاج معرفة جديدة .

4 ـ أثبت البحث إمكان فسح المجال للجوانب الجمالية في إنتاج أدب الأطفال دون حصر الاهتمام في الجانب المضموني من هذا الأدب وقد تحقق ذلك بتقديم عدد من التصميمات المبتكرة سواء من حيث الصياغة اللغوية أو التصميم الإخراجي للقصص .

5 ـ تبين من البحث ما يمكن أن يسفر عنه استخدام المنهج الذي يحدد المشكلة ويتصدى لمعالجتها وتقديم الحلول الممكنة لها من نتائج ذات أهمية بالغة . ومن ثمة تظهر أهمية مثل هذا المنهج الذي يعتمد الأسلوب النوعي في البحث Qualitative بقدرته على التحفيز والتدريب وتحقيق نتائج ملموسة يعاين الطالب أثرها على نحو مباشر وفوري .

## الهوامش والمراجع

(1) بن جلون ، الطاهر : **العنصرية كما شرحتها لابنتي** ، ترجمة : د .نبيل محسن ، دمشق : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع ، 1998 .

(2) العنصرية كما شرحتها لابنتي ، ص 76 .

(3) الجعفر ، علي عاشور : «الطبيعة الحوارية» ، **مجلة البيان** ، رابطة الأدباء في الكويت ، الكويت ، 2004 ، ع 404 ، 75-78 .

(4) محمد ، خالد سالم : **كلمات أجنبية ومعربة في اللهجة الكويتية** ، الكويت : مطبعة الفيصل ، 2004 .

(5) Freire, P. (1995). **Padagogy of the oppressed**. New York: Continum Publishing.

(6) Gay, L. R. (1992). **Educational research: Competencies for analysis and application.** New York: Macmillan Publishing Company.

(7) أندرسون ، هانز كريستيان : **البطة الدميمة** ، تونس : دار المعارف للطباعة والنشر ، 1987 .

(8) لطفي ، محمد قدري : **البطة دودو** ، القاهرة : دار المعارف ، 1994 . والطويل ، لينا : **فرخ البطة القبيح** ، دمشق : دار الشروق ، 1981 .

(9) محمد ، عبدو : **الأرنب الصغير المتكبر** ، د .ت ، حلب : دار ربيع للنشر .

(10) محمد ، عبدو : **نزهة الأصدقاء** ،د .ت حلب : دار ربيع للنشر .

(11) محمد ، عبدو : **الطاووس الصغير** ، حلب : دار ربيع للنشر ، 1998 .

(12) السحار ، محمد عادل : **الفيل صديقي** ، د .ت ، القاهرة : مكتبة مصر .

(13) مصطفى ، حنفي : **النملة العملاقة** ، د .ت ، القاهرة : دار الفكر العربي .

(14) غديرة ، فاضل : **الجمل ووحيد القرن** ، بيروت : منشورات الشجرة ، 1997 .

(15) جاد ، نهاد : **الأسماك الصغيرة** ، د .ت ، القاهرة : دار الشروق .

(16) حسن ، شوقي : **الشجرة المغرورة** ، القاهرة : مكتبة مصر ، 1989 .

(17) فرحان ، هدى : **الآنسة بطاطا تبحث عن صديق** ، الكويت : الأمانة العامة للأوقاف ، 1999 .

(18) أبو خليل ، شوقي : **أنا لا أسخر من أحد** ، دمشق : دار الفكر ، 1989 .

(19) محمد ، عبدو : **الصغير المهذب** ، د .ت ، حلب : دار ربيع للنشر .

(20) محفوظ ، نجلاء : **حكاية اللون الأحمر** ، القاهرة : دار المعارف .

(21) حسن ، شوقي : **وتعلمت البطة القناعة** ، د .ت ، القاهرة : مكتبة مصر .

(22) شمس الدين ، سالم (إعداد) : **الضفدعة والثور** ، د .ت ، بيروت : الدار النموذجية للطباعة والنشر .

(23) حسن ، شوقي : **منتهى الغرور** ، القاهرة : مكتبة مصر ، 1999 .

(24) الشربيني ، عواطف : **البطة الرشيقة** ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998 .

(25) بنت خالد ، هلا : **أنا ميمون** ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، 1998 .

(26) سعيد ، أمير : **القطة السوداء** ، د .ت ، القاهرة : مكتبة مصر .

(27) حداد ، رشاد خالد (ترجمة) : **الحسناء والوحش** ، دمشق : مكتبة الإيمان ، 2001 .

(28) Griffith, J.W & Frey, C.H. (ed). (2000). Classics of children's literature. New York: Prentice Hall.

(29) الحديدي ، علي : **في أدب الأطفال** ، ط 6 ، القاهرة : مكتبة الأنجلو ، 1991 . وحنورة ، أحمد حسن : **أدب الأطفال** ، الكويت : مكتبة الفلاح ، 1989 . وشحاتة ، حسن : 1996 **قراءات الأطفال** ، ط3 القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 1996 والعناني ، حنان عبدالحميد : **أدب الأطفال** ، ط3 الأردن : دار الفكر للنشر والتوزيع ، 1996 . قناوي ، وهدى محمد : **الطفل وأدب الأطفال** ، القاهرة : مكتبة الأنجلو ، 1994 ، وموسى ، عبدالمعطي نمر ؛ ومحمد عبدالرحيم الفيصل : **أدب الأطفال** ، الأردن : دار الكندي للنشر والتوزيع ، 2000 ونجيب ، أحمد : أدب الأطفال علم وفن ، ط2 ، القاهرة : دار الفكر العربي ، 1994 والهرفي ، محمد علي : **أدب الأطفال** : دراسة نظرية وتطبيقية ، القاهرة : دار الاعتصام ، 1996 .

(30) الهيتي ، هادي نعمان : **أدب الأطفال : فلسفته ، فنونه ، وسائطه** ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 .

(31) قراءات الأطفال .

(32) الشمّاس ، عيسى : **القصة الطفلية في سورية : دراسة تحليلية للقيم التربوية** ، دمشق : وزارة الثقافة ، 1996 .

(33) رمضان ، كافية : **تقويم قصص الأطفال في الكويت** ، الكويت : مطبعة حكومة الكويت ، 1978 .

(34) الغضبان ، عادل : **عقلة الأصبع** ، ط19 ، القاهرة : دار المعارف ، 1998 .

(35) رمضان ، كافية : مضمون الكتب الصادرة للأطفال – ضمن كتاب : **كتب الأطفال في الدول العربية والنامية** ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1984 وتقويم قصص الأطفال في الكويت ، 105-121 .

(36) الباطني ، بزة : **الحكايات الخرافية الشعبية** ، الكويت : مطابع كويت تايمز ، 1988 وبشمي ، إبراهيم : **حكايات شعبية من البحرين** ، البحرين : مطبوعات بانوراما الخليج ، 1986 .

(37) Zipes, J. (2003). The complete fairytales of the Brothers Grimm. New York: Bantam Books.

* يوجد لدى الباحث الملحق الخاص باسماء الطالبات المشاركات بالجانب التطبيقي في هذا البحث .

❊ ❊ ❊